مدخل

لدينا فكرة خاطئة، أن كل كمية من البشر على قطعة محددة من أرض تمثِّل مجتمعًا، شعبًا أو دولة. واقع الحال أنه لا يوجد ما يربط هؤلاء البشر ببعضهم، أو يربطهم بالأرض.

لذلك كان الصراع داخل جماعة البشر تلك هو الحالة السائدة، بدلاً من الاتحاد وتنظيم المتطلبات وتوحيد الخطاب والغاية لبناء مجتمع سياسي قادر على حماية نفسه والأرض الموجود عليها. حالة الدفاع عن المجتمع أو الأرض لم تعرف تاريخيًا وفي طابعها الوطني.

وعلى العموم تتحدث المجموعات البشرية من المحيط إلى الخليج لغة واحدة ولهجات متقاربة، ولكن تشخيص علاقتها باللغة وعلاقة اللغة بالأرض، يبقى أمرا فوق طاقتها. بل أن اختلاف الأفراد والعوائل داخل اللغة واللهجة والقرية والمدينة، أمر واقع ومدمِّر، وعصي عن التفسير أيضًا.

في هكذا محيط يُولد الفرد العربي ويجد نفسه مجبرًا على التكيف والانسجام طوعا أو عنوة، متجاوزًا الأسئلة؛ أو يجد نفسه عاجزًا على الانسجام مكابدًا ألم التناقضات اليومية العائلية والمحلية من غير أجوبة فكرية حاسمة.

واقع الحال أن الاغتراب هو الصفة الأكثر شيوعًا في الشرق الأوسط... وليس العنف اليومي؛ اللفظي والفيزيائي، الاجتماعي والسياسي، المعيشي والديني، غير نتيجة من نتائج الاغتراب وغياب الانسجام والتكيف الفكري.

ثمة إشكالية تاريخية تتعلق بعلم الاجتماع السياسي في منطقة الشرق الأوسط.

هذه الإشكالية لم تُشخَّص وتُدرس بعقلية أكاديمية وموضوعية، وقد حاولتْ مصادر الإعلام السياسي والأيديولوجيات الحزبية تجاوزها، في صياغة مجانية بما يخدم أفكارها وأغراضها، ليجد الفرد نفسه أمام طوباويتها، وعجزها عن الاستجابة لمتطلباته وأسئلته مع الزمن. وقد ساعدت الدولة الوطنية القومية في القرن العشرين حتى ما قبل السبعينيات، في توفير غطاء سياسي ثقافي، سرعان ما أعاد انهيارها اللاحق، العرب إلى المربع صفر.

هنا وجد الفرد نفسه؛ وهو على عتبة القرن الحادي والعشرين، أمام أسئلة الأرض والانتماء واللغة والقومية. وإزاء انهيار مؤسسة الدولة ككيان سياسي، تحولت منطقة الشرق الأوسط إلى سوق مفتوحة تعج بالأطر السياسية والمنظمات الحزبية والدينية والمليشيات المسلحة على اختلاف أجنداتها، ناهيك إلى عودة مشوهة للتقسيمات القبلية والطائفية، تتحكم بها موازين الصراعات الإقليمية والدولية.

لماذا أصبحت مسألة الانتماء الوطني والقومي هشَّة ومهزوزة في شرق المتوسط، وصار الفرد عاجزًا عن تأكيد أو تبرير علاقته بالأرض والشعب واللغة ؟ فإذا عنى له أن يجد إطارًا اجتماعيًا يدعمه أو يدعم رؤيته، وجد نفسه في وحل الطائفية أو الحزبية أو العشائرية، وكل هذه ترتبط بأجندة حزبية إقليمية ودولية تضمن مصالحها الفردية والفئوية، على حساب الوطن والشعب والدولة!.

الحرب الأهلية في لبنان السبعينيات والثمانينيات كانت كارثة قومية تاريخية بكل معنى الكلمة. الكارثة حصلت بعد موت عبد الناصر وانتهاء مرحلة سياسية ثقافية راسخة ومميزة في التاريخ العربي المعاصر. لتبدأ مرحلة نقيضها، ممثلة في عهد الانفتاح الساداتي في مصر، وتهشيم الهويات الوطنية وإشاعة

حرب الطوائف السياسية والمكونات المسلحة بدء من لبنان. لبنان البلد الجميل والأصيل والأبعد عن الأيديولوجيات والمهاترات والصراعات السياسية، لكنه أيضًا البلد الأصغر والأضعف عسكريًا وسياسيًا ، أُختير ليكون أنبوبة الاختبار التجريبية ، وساحة لتصفية النضال الفلسطيني وتأجيج النعرات الدينية والأيديولوجية.

ولا أحد يقتنع اليوم أن تلك الحرب التدميرية كانت شرارتها حادث شخصي مفتعل بين طرفين، تمَّ أدلجتها وتسييسها وتهويلها لصراع طائفي، بدل حلها سلميًا وديًا باسم العقل والأخوة.

نفس شرارة أيلول الأسود في الأردن، أعيد تجربتها في بيروت ونجحت نجاحًا ساحقًا، وكما أخرجت المقاومة من الأردن، قادت إلى إخراج المقاومة من لبنان.

إن نجاح عملية تصفية التهديد الفلسطيني، دفع باتجاه تمرير حلقات تالية من المشروع، هي تصفية الحزام الأمني والدولة الوطنية، وصولاً إلى تصفية التهديد الإسلامي وإشاعة تجريمه عالميًا ، وهي المرحلة المستمرة والدائرة حلقاتها في شرق المتوسط.

هذا السيناريو المتواصل بحلقاته المستمرة مثل المسلسلات المصرية والتركية بأجزائها المتعددة وبكل تفاهتها، استهدفت تحطيم معنويات الفرد العربي وتهشيم الأسس والقواعد الفكرية والمادية التي كانت تدعم وجوده وكيانه وخطابه، وبشكل يجرِّده من كل مقوماته الإنسانية الطبيعية ويتركه على قارعة الفهلوة والصعلكة وعضوية المليشيات أو الهجرة.

حالة الفرد العربي اليوم هي الأسوأ بلا نظير تاريخيًا، وقد عدمت أرضية الإصلاح وغاب خطاب إعادة البناء، ولا توجد قوة أو خطاب محلي وطني راسخ لمقاومة الانهيار.

فما هو الضمان الذي تقدمه العائلة لطفلها الوليد في هذه البيئة المضطربة والعنيفة؟.

أسئلة تستحق الطرح والمناقشة والبحث عن أجوبة وتفسيرات...

•

من ملامح الحياة العصرية ، ارتباط حياة الفرد بالنظام العالمي وسياساته العابرة للحدود. وبعدما كانت الصلة ضعيفة، والانعكاسات الدولية محدودة وغير مباشرة في النظام العالمي السابق، فهي تنعكس اليوم مباشرة على حياة الفرد، وتكاد تتناول كل تفاصيل حياته الخاصة والعامة، الجزئية والكلية.

وبعدما كانت الدولة في القرن العشرين تشكِّل حاضنة اجتماعية واقتصادية وسياسية للفرد، وحارسًا مرشدًا في حمايته التربوية والقانونية والمحافظة على خصائصه الثقافية والوطنية ، من خلال برامج التنمية الاجتماعية والبناء الاقتصادي ، وتشكيل خط حماية دولية في وجه التأثيرات الأجنبية وفلترة السياسات والثقافات الخارجية بما ينسجم مع الهوية المحلية ويخدم المشروع الوطني، تراجع دور الدولة في هذا المجال، وتحولت إلى مجرد هيكل إداري أجوف، ووكيل لترويج منتجات السياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام العالمي وتسهيل تطبيقاتها في المجتمع المحلي والإقليمي.

النظام العالمي الراهن الساري منذ ربع قرن تقريبًا، تقترن فعاليته باختزال دور الدولة وتحجيمها بشكل يجعل منها مجرد فرع لوكالة دولية في المجتمع المحلي ، يتقاضى ساستها عمولات ومكافآت بنكية وسياسية بحسب مدى مساهمتهم ونجاحهم في تمرير السياسات الخارجية وتسويق منتجات السوق العالمية.

•

"عارٍ عن الأهل، صفر الكف، منجردٌ كالسيفِ جردَ متناهُ من الحللِ"

الفرد اليوم، بلا غطاء حماية أو سقف وطني/محلي، يجد نفسه عارياً ومجردًا في عراء صحراء العالم المكتظة بالتيارات والعواصف والأجندة والمسميات الضبابية. الفرد العالمي هو مستهلك يتبضع في سوق عملاقة تعج بما لا نهاية ولا حدود له من سلع تتجاوز حاجاته المحدودة وإدراكه، مسبوقة ومقرونة بإعلانات مغرية ودعايات محفزة وتسهيلات مزعومة، بما فيها العينات المجانية، وبشكل يحاصره ويجعل من الصعوبة عليه البقاء خارجها.

مصطلح "الفرد العالمي"[•] نفسه يعود إلى القرن الثامن عشر، عندما أعلنت الجالية اليهودية في هولندا براءتها من المفكِّر "باروخ سبينوزا" جراء توجيهه

• سعى الإنسان القديم إلى التقارب من أشباهه البشر والتعايش في جماعات صغيرة تطورت بالتدرج لإنتاج مجتمعات متباينة، اشترطت لبنائها وحماية نفسها إلى جملة قواعد وضوابط تتفاوت في درجة شدتها ومرونتها، على أن المجتمعات القديمة عمومًا تنتمي للحالة العبودية التي تحكم على المخالف بالحرمان من الحماية والرعاية وأحيانًا الموت. وهذا هو الإطار الذي ذهب ضحيته أفراد كثيرون عبر لاالان خالفوا بيئاتهم الاجتماعية في قليل أو كثير. وقد اتخذ الصراع بين الفرد والجماعة مستوى مميزاً في القرن السادس عشر الأوربي وما بعده، عشية بدء تشكل الهويات الأوربية البلدانية وظهور كيانات سياسية وطنية. لكن أول حالة مشخصة ارتبطت بالفيلسوف الهولندي من أصول يهودية "باروخ سبينوزا" عندما حرمته طائفته جراء إدخاله تفسير ديني مغاير للتعليم الكهنوتي. وقد جرى وصفه بالفرد العالمي تعبيرًا عن فقدانه الانتماء الطائفي/ (القومي على أساس الدين). وواقع الحال أن العديد من المثقفين والعلماء من أصول يهودية كانوا علمانيين لا يلتزمون بتعاليم وضوابط حواضنهم الاجتماعية. فعلماء مثل ماركس وفرويد وأينشتاين تنكروا للضوابط اليهودية وبعضهم انتقدها بشدة. وقد استخدم ألبرت أينشتاين اصطلاح (مواطن إنساني) لوصف نفسه ورفض ترشيحه رئيسًا لدولة اسرائيل. أما الدنماركي سرن كركجورد فنحت اصطلاح (الفرد الوجودي) الذي تطور لدى روسو إلى (الفرد الحرّ/ الواعي) ثم (المثقف الملتزم)، وانتقل لدى كولن ولسن إلى (اللامنتمي/ Autsider) ، واعتبر شخصيًا مصطلح (الغريب Stranger/) الأكثر تخصيصًا ووضوحا بين ذلك، وكانت شخصيات مثل عزرا باوند وفرانتز كافكا أفضل ممثليه. لكننا لا ننسى هنا تطور اتجاه المصطلح على يد كارل بارث بإضافة سمة (الاغتراب) عقب الحرب العالمية الثانية ودخول عناصر ثقافية جديدة لم يألفها الجيل السابق، فولد اصطلاح (إنسان مغترب) للشخص غير المنسجم مع ثقافة زمنه أو محيطه الاجتماعي. واليوم يظهر اصطلاح (توحّد/ Autisim) القريب من مجال البحث وأكثر تخصيصًا في علم نفس الفرد. وبشكل عام يكشف التدرج والتطور والاهتمام الملحوظ هنا، عن تعاظم الشقة بين الفرد والجماعة جراء تعقد المستحدثات القيمية الجديدة المقترنة بالتطورات الرأسمالية والإلكترونية الراهنة. والفرد الإلكتروني ليس غير نموذج لشخص مغترب منفصم عن محيطه المحلي محلق في محيط أثيري وهمي، يمنحه الاشباع من خلال التراسل الذهني [state of mind] وهو مجال لم يفت كولن ولسن في روايته [طفيليات الذهن]. واستمرار البحث في هذا المجال سوف يحقق نقلة نوعية فكرية اجتماعية تنقل الثقافة البشرية من مجال نظرية الحواس الأرسطية إلى مجال التصور والتركيز الذهني.

انتقادات لجوانب من العقيدة. وقد جعلته تلك البراءة نوعًا من الـ-لا منتمي- لهوية ثقافية أو جماعة محلية.

إن الفرد العالمي، هو أيضًا فرد -لا منتمي- لإطار محلي أو وطني. وقد يحاول البعض اعتبار الانتماء للإنسانية عامة، هوية بديلة للانتماء الوطني/القومي/المحلي ، ولكن ما هي صورة الحضانة الاجتماعية الحميمية والسمات الخصوصية لهذا الانتماء؟...

هل وجدت حتى الآن حالة ثقافة إنسانية حقيقية أو حضانة إنسانية تغني المرء عن خصائصه المحلية وحاجاته النفسية؟...

هل بلغت ثقافة هذا الفرد مستوى عابراً للحدود والثقافات يتجاوز به نزعاته الفردية ومحيطه الحيوي وعائلته، وتعويضها في بدائل غير محلية؟.

حتى الآن لم يتحقق هذا الحلم، وأشك ـ شخصياً ـ في واقعيته!

هنا نجد أنفسنا أمام حالة من الانفصام والعجز عن الانسجام والتكيف مع محيط مغاير في سماته ومنتجاته للمحيط التربوي والثقافي الخاص للفرد ، تعارف عليها علماء النفس بالاغتراب. وما يسمى بالفرد العالمي ، هو فرد مغترب، فاقد لبيئته المحلية، ولا يجد بيئة حميمية بديلة.

في مراحل عمرية أو نفسية معينة -كالمراهقة-، قد يجد البعض نفسه منساقًا وراء نزعات وتيارات، يعتقد أنها تساعده في تحقيق استقلاليته وكيانه الذاتي الخاص. ولكنه ما يفتأ يصحو على نفسه، بعد تجاوز تلك المرحلة، ويجد أنه أحوج ما يكون لدفء محيطه العائلي الأول، وحميمية العلاقات الاجتماعية والطفولة الأولى.

لم يولد للآن إنسان منقطع عن الماضي. فالانقطاع عن الماضي يعني انعدام

الذاكرة. ومن غير ذاكرة تستحيل آلية التعلم والحفظ والخزن. بمعنى آخر، أنها عودة لمرحلة ما قبل ظهور الوعي والإدراك التي سبقت ظهور الإنسان النياندرتال قبل أكثر من مليون عام.

•

تمثل الشبكة الإلكترونية ومواقع الاتصال الاجتماعي ميدان تطبيق النظام العالمي الجديد وتداول منتجاته وظواهره وتسويقها. جمهور الإنترنت هم في العموم من فئات الناشئة والشباب الباحثين عن المستقبل وإمكانية بناء كيانهم الشخصي وتحقيق استقلاليتهم المادية والاجتماعية، وغالبيتهم ضحايا للضياع والقلق والتوتر. ينطبق عليهم القول المأثور:

"ألقاه في اليم تكرارًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء"

بناء المستقبل والكيان المادي يحتاج إلى أرضية ثابتة ومحيط مستقر آمن، ولا يكون رقمًا أثيريًا عائمًا في مهبِّ رياح العولمة والبورصة والتغيرات غير المحدودة.

وفي الصفحات التالية محاولة لقراءة بعض صور الحياة العصرية، ومغايرتها للحداثة وإشكالياتها المتداخلة والمتفاقمة ، في مجتمعات الشرق الأوسط وفوضى خرائطها المضطربة!.

نظرة نحو الخلف

لا أحد يحسد العرب اليوم على ما حقّقوه من رفعة وسيادة ومكانة لائقة بين أمم الأرض وقواها العظمى ، وذلك بعد قرن من التضحيات والخطط السديدة والسياسات الرشيدة وإرساء قواعد دولة القانون وأُسس المجتمع الديمقراطي التي تضمن لكل إنسان حقه في الحياة الحُرَّة الكريمة ، كما تؤكدها جميع المواثيق العربية الرسمية والحزبية دون استثناء ، وبالشكل الذي يجعل من حقوق الحياة والاعتقاد والرأي والتعبير والعمل والسفر بديهيات يومية مملة!.

إن معيار أي حضارة أو مدنية أو تطور إنما هو الإنسان. الإنسان بكيانه ومصالحه ومعتقداته ومدى تصالحه مع نفسه ومجتمعه والعالم. وفي هذا الصدد لا يمكن التغافل عن وضع الإنسان العربي وما بلغه من مديات خارقة تتيح له الدخول في مسابقات الأرقام القياسية والخروج منها مثل الجمل في سَمِّ الخياط.

فعلى صعيد التاريخ والجغرافيا يحتل العرب اليوم أوسع بقعة من مساحة الأرض التي تشمل الماء واليابسة ، بدءًا من أصغر جزيرة لا ترى بالعين المجردة في الأطراف الجنوبية من المحيط الهادي عبر مثيلاتها في المحيط الهندي إلى الجنوب من جزيرة سيلان ولاوس إلى مجاهل أفريقيا وأميركا الجنوبية وصولاً إلى مجاهل أميركا الشمالية وأوربا وآسيا.

وهي المرة الأولى التي ينجح فيها العرب في توسيع حدود إمبراطوريتهم العالمية التي تبدو معها إمبراطورية الروم أو العباسيين أو الكومنولث مثل فأرة بجانب جبل. وما يزال أولاد قحطان وعدنان يبذلون جهودهم الإيمانية الحثيثة في البر والبحر ، لبلوغ أبعد نقطة عن وطنهم الأم ، ممثلاً في شبه جزيرة العرب وما يحاددها ، من أجل تحقيق ذاتهم والتحرر من ربقة اليأس والرتابة والإحباط ، والقتل العمد غير المخطط والقتل المخطط غير المقصود دون الفوز

بنعمة الجهاد الواردة في باب جهاد النفس وجهاد العيش، باعتباره أعلى رتب الجهاد التي تقتضي من المرء السعي في مناكب الأرض واستحصال الرزق ولو كره الكارهون !.

وإذا كان الاقتصاد دعامة كل أُمة وضمانة أية حضارة ومستقبل ؛ فإن أثر العرب في حياة الأمم والدول السائدة منذ القرن المنصرم مما لا يمكن تجاهله بالبصر أو بالبصيرة ، سواء بالمنظور الاستراتيجي للتغيرات والأحداث السياسية الأرضية ، أو المنظور الإنساني للحياة اليومية للبشر في مختلف القارات، سيما في قلب أوربا وأميركا.

ويكفي أن يعطس مسؤول عربي أو يتنحنح، حتى يتأثر استقرار الغرب وحركة الأسعار والعملة اليومية المستندة إلى تموجات أسعار النفط.

والحقيقة أن الفعل العربي الراهن في الحياة الدولية والغربية خصوصًا ، يتم على ثلاثة أصعدة متساوقة : ضخ المواد الأولية الاستراتيجية ممثلة بالنفط أساسًا ؛ تأمين الغطاء النقدي للاقتصادات الغربية عبر تراكم وتنامي المليارات العربية في البنوك الغربية تحت حسابات مشفرة ؛ مدّ الاقتصادات العالمية والغربية – على سبيل التخصيص والودّ – بالأيدي العاملة الاختصاصية وشبه المتعلمة، وبالشكل الذي يضمن عدم استفادة الاقتصادات العربية من الإمكانيات البشرية والمادية التي لديها –كمًّا ونوعًا–.

وبالمقابل تستقبل البلدان العربية أعدادًا لا حصر لها من العمالة الغربية "الجنس الراقي" ولأغراض ومهمات لا يعلم بها غير الله ، وذلك لتأمين موارد دخل إضافية باذخة استنادًا إلى قيم الكرم والمروءة والأخلاق العربية السامية، التي تتعدى المرتب إلى بدلات ومخصصات وهدايا ومكافآت، يقف الاقتصاد المالي التقليدي عاجزًا أمام تبويب فقراتها.

وما ذلك إلا في خطوة ذكية من الحكام العرب لتنبيه الأصدقاء الاستراتيجيين

لضرورة التعامل بالمقابل مع الرعايا العرب المهاجرين لديهم. وللحق فإن الأصدقاء الاستراتيجيين قد تجاوزا كرم العرب في معاملة رعاياهم سواء في أنواع الأعمال ومناسيب الدخل المجزية أو تجاوز مواثيق التمييز العنصري والديني وخروقات حقوق الإنسان. وكان من علائم الارتياح المتبادل اختزال دور القناصل المعتمدين في متابعة مصالح المغتربين وعدم الحاجة لتعكير الأجواء بسبب فلان وعلان.

أمَّا على الصعيد الثقافي والذي لابدّ ينسجم ويتأثر بحركة التطور الاقتصادي والمدني، يفوق عدد المؤلفين والكتاب والأكاديميين العرب اليوم ما لدى نصف بلدان العالم مجتمعة، كما يتفوق العرب على غيرهم في عدد المتحدثين بلغات أجنبية بعد أن كانت الأمية -وما تزال- هي الصفة البارزة للعالم العربي. وكان لابدّ إزاء هذا الانفجار الثقافي أن تعجز وسائل الإعلام العربية عن استيعاب هذه الأعداد فتدفع موجات منهم إلى المقاهي أو الهجرة، ناهيك عن صعوبة مراقبتهم أو شمولهم بالتوجيه والدعم المؤسساتي النظيف ؛ أو تأمين وسائل الحماية الكافية لهم من المشعوذين والمتطرفين والجُهَّال الذين يغيظهم ما عليه الأديب العربي من رفاهية وكرامة وحرية لا حدود لها.

عند النظر إلى حركة الشارع، أو مراقبة مركز مدينة... ما هو الشعور الذي يراود المرأة؟...

إن مكتشف البنسلين سوف ينظر بدرجة من الفخر لفعالية الدواء الذي اكتشفه...

والعالم يشعر بالثناء على الرومان وهو يرى هندسة المدن والقلاع وخرائط الطرق والجداول والحدائق التي توصل بينها...

ومكتشف الديناميت يعتريه الأسى حين يرى حجم الأضرار المترتبة على اكتشافه...

صحيح أن سرَّ (تقدم) البشرية هو أنها دائمًا تنظر للأمام... ولكن لا مفر من النظر في الحاضر ، سيما إزاء (تطور) مظاهر الخراب واحتلالها مختلف مجالات الحياة...

- خصوبة عالية

جيرمين تيليون... الباحثة النسائية تذكر هجرة بضع مئات من القرويات الفرنسيات في منطقة النورماندي في القرن السابع عشر إلى كندا ليصبح لهن عشرة ملايين حفيد... قصة تذكر بعنوسة النساء والأرامل في أوقات الحروب وأعقاب التغيرات الدولية العنيفة لانقلاب الألفية.

حيث تشير إحصاءات إلى وجود سبعة ملايين عانس في مصر ، وأرقام بنفس الخطورة في بلدان الشمال الأفريقي جراء صعوبات المعيشة وهجرة الشباب ، فيما خلفت السياسات العراقية ثلاثة ملايين أرملة (تقرير الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦) وخمسة ملايين يتيم ، ناهيك عن تصاعد معدلات العنوسة وتعدد الزيجات ونسبة الطلاق... وكأن الشرق الأوسط يواجه شبه الظروف التي

أنتجت النص الوارد في سفر أشعياء بن أموص (**في ذلك اليوم تتشبث سبع نساء برجل واحد قائلات: تزوج منا ودعنا ندعى على اسمك ونحن نتكفل بطعامنا وثيابنا**)...

هذه الصورة تتوارد كذلك مع مشاهد سيل النساء (الأجنبيات) المندفعات في أماسي لندن وأشباهها من المدن الكبيرة... سيل النساء الدافعات لعربات الأطفال في الصباح... أزمات الإدارات التعليمية مع تلاميذها وصور الفوضى والاستهتار في أوقات أواخر الأسبوع وتفاقم أزمات البطالة والمعيشة على العموم...

- انفجار سكاني

بين القرن الثامن عشر وأواسط القرن العشرين تضاعف عدد سكان العالم من مليار شخص إلى ثلاثة مليارات و ١٣٥ مليون نسمة (١٩٦٢) وفي أواخر القرن العشرين تجاوز الرقم السبعة مليارات ، ويخشى المراقبون بلوغ الرقم اثني عشر مليارًا بعد نصف قرن. هذه الزيادة المضطردة في عدد السكان تقترن بازدياد انحطاط مستوى الحياة ومستلزماتها الأساسية...

- قنابل الهجرة

إن أبرز ملامح الحياة المعاصرة هي الهجرة. ومغزى الهجرة الجديدة هو عجز البلدان عن استيعاب الزيادات المضطردة في السكان ، من جهة ، ومن جهة أخرى تعاني المدن والبلاد المستقبلة للهجرات من تدني متواصل في مستويات المعيشة والخدمات الأساسية.

ناهيك عن انتشار الفساد والجريمة والأمراض ، وبشكل يهدد علناً بفقدان أوربا لامتيازها الحضاري وتحولها إلى امتداد سكاني واقتصادي للبلاد دون مستوى النمو. وهذا ينعكس سلبًا على مفهوم الوطن ومغزى مسقط الرأس والعائلة

الوطنية لصالح مفاهيم ومظاهر تتصدرها قيم المادة واضطراب المعيشة وانتهازية الأخلاق.

- المرأة تتحدى

إن الصورة المتوارثة تاريخيًا عن المرأة، هي دور الضحية؟...
لكن المرأة لم تقف سلبية في حلبة صراعها الوجودي، وقد استعملت سلاحها الجنسي على مدى التاريخ، وبالشكل الذي يعيد إلى الذهن تراث المجتمعات الأمومية في العصور القديمة. فالمرأة التي دفعتها التراتبية الاجتماعية إلى المرتبة الثانية، استمرت تحتفظ بالدور الأساسي في حركة التاريخ. لم تستطع الأديان والدول والثقافات التقليدية هزيمتها، طالما بقيت الوحيدة في مجال تزويد الأديان والدول والمجتمعات بالمواد البشرية اللازمة.

لقد أدركت الجماعات القبلية والقومية والدينية استحالة تعويض دور المرأة كمنتج للبشر، مما اقتضى قدرا من المجاملة الاجتماعية دون الاعتراف الكامل أو السماح بتحريرها ومساواتها بالرجل القائد، صاحب الأمر والنهي والتوجيه.

- استعجال الهاوية...

يقدم المؤرخ أرنولد توينبي، رؤية واقعية عن سبب انقراض بعض أجناس الكائنات الحية عبر التاريخ، ممثلا في الطمع. ويرى (أن الإنسان لن يستطيع انقاذ نفسه من الدمار الذي تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان، ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير كُليًّا بحيث يحفزه ذلك للتخلي عن غايته الحالية).

إن أكبر المفقودات اليوم هو الحكمة الإنسانية، وأكثر المحظورات شيوعًا هو الجشع والطمع الفردي، عند المرأة والرجل والكاتب والسياسي ورجل الدين والتاجر... الغني والفقير والأسود والأبيض بلا استثناء.

إن استحضار عقاقير لعلاج أمراض عضوية قابله زيادة مريعة في عدد وأنواع أمراض اجتماعية ونفسية أكثر خُبثًا من السرطان في سرعة انتشاره أو سهولة شيوعه أو أضراره التدميرية التي تغشى كل بصيرة.

- تنانين بشرية

من مقاتل النظريات القومية والدينية الاستهانة بالإنسان.
فلم يحصل في تاريخ الفكر أن أحدها أكرم أبناءه بما فيهم الرومان أو الإنجليز أو العرب أو الألمان. فهذه وسواها ولدت بالحروب وتوسعت بالحروب وتنقرض بالحروب. هذه الدول اعتمدت على النُخبة (الملكية) والطبقة (الحاكمة والحاشية) والأغلبية المسخرة من كادحين وجنود وعبيد.

انتهت الدولة القومية في أوربا بظهور المجتمع المدني، وفشلت الدولة القومية والوطنية في العالم الثالث لصالح التيار الاجتماعي القبلي والديني التقليدي. وانتهت مسألة الحدود السياسية مع تفسخ الصراع بين الثقافات الكولونيالية وشعوب المستعمرات لصالح هجرات سكانية تنساب بين القارات، بين مراكز الشحة ومراكز الوفرة، وذلك على غرار حركة البدو في الصحراء حيث الكلأ والماء.

- أقطاب وألوان متحركة

لكن تصادم الثقافات أو اختلاط الجماعات المتفاوتة حضاريًا أفرز حالة غريبة من حروب اجتماعية باردة على صعيد ذاتي وجماعي.

فالشعور بالهزيمة السياسية والخواء الحضاري انعكس لدى المهاجرين من أصول متخلفة حضاريًا ، إلى ركوب موجة السباق السكاني، والذي يتحول إلى تهديد سافر إزاء تراجع النمو الدمغرافي لبلدان الغرب.

في المدارس الإنجليزية يشكِّل المهاجرون نسبة الأغلبية بين الطلبة، والطابع العام للسكان في المدن التجارية وفي قطاعات اقتصادية عديدة. أكيد أن لندن ليست جوهانسبيرغ، ولكن بريطانيا هي التي صنعت روديسيا.

وفي تاريخها المبكر كانت إنجلترا أول بلد أوربي كبير يستقبل اليهود في بداية الألفية الثانية (١٠٧٠م) كما كانت أول بلد أوربي يطرد اليهود خارجًا في (١٢٩٠م) أيضًا.

يقول عنوان مسلسل تلفزيوني شعبي في النمسا [ein Wiener get net runter !]، ومعناه أن ابن البلد لا يمكن هزيمته، وهو نفس مغزى المسلسل التلفزيوني الإنجليزي [coronation street]. وبعد عشرة قرون من الهجرة اليهودية إلى إنجلترا فإن أخر تقديرات عددهم عام (٢٠٠٧م) لا تتجاوز ثلاثمائة ألف نسمة، يقيم مائة ألف منهم فقط في لندن. وبالتالي، فليس تقليدًا معيبًا إذا استحالت بريطانيا إلى روديسيا، فيما تستطيع إدعاء أن أستراليا وكندا وربما الولايات المتحدة بلادًا إنجليزية على أصعدة اللون واللغة.

- النوع رجاء

مع تصاعد أرقام أرباح الشركات الاقتصادية على اختلاف أنواعها وقطاعاتها، فإن الظاهرة المسجلة، ليست فقط تراجع الاقتصاد الإنتاجي لصالح الاقتصاد الاستهلاكي والاقتصاد التجاري الخدمي فحسب، وإنما هو التراجع النوعي للسلعة الخدمية أو الاستهلاكية، - يشمل ذلك مستوى الأداء الوظيفي والخدمات العامة أيضًا -.

ذلك أن محور الصراع والمنافسة الدائرة في السوق الدولية ليس اقتصاديًا بالمفهوم التقليدي، وإنما هو منافسة مالية. ويلعب الدعم المالي أهمية في صمود بعض الشركات وصدارتها، أو في تراجعها واختفائها.

شركات السيارات ذات المتانة التقليدية المتوارثة ليست في صدارة سوق السيارات اليوم ، وإنما تلك التي تستطيع تحقيق موازنة توفيقية بين النوعية والسعر ، وهو سِرٌّ تصدر اليابان لسوق السيارات والإلكترونيات ، تتبعتها على نفس الطريق كوريا وتايلند ومجموعة جنوب شرقي آسيا.

أما شركات السيارات التشيكية والرومانية التي اشترتها شركات ألمانية فتدخل في النمطية الألمانية. ونفس الأمر ينطبق على هيمنة المنتجات الصينية في مجال النسيج والألبسة ومستلزمات الأطفال والألعاب والمنزلية.

الفكر الاقتصادي الحديث(•) يختلف عن الفكر التقليدي ، ولذلك فإن قيمة السلعة ليست دائمية أو مفتوحة وإنما محددة بزمن لا يتجاوز الثلاث أو الخمس سنوات تبدأ بالتراجع بعدها وتستحق التبديل.

هكذا تضمن شركات الإنتاج استمرارها في الحياة وتطور أرباحها. تبدى هذا في عروض ضمانات الشراء التي تراوحت بين سنتين إلى أربعة سنوات في مجال الكهربائيات والإلكترونيات والسيارات.

وهو ما يعادل العمر النوعي ، وبعض الأغنياء يستبدلون سياراتهم ومقتنياتهم الإلكترونية خلال ذلك. هل انعكس الفكر النوعي الاقتصادي هذا في مجال الإنتاج البشري؟. هل اختلفت قيمة أبناء اليوم عن سابقيهم؟...

- العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة...

من المؤسف ملاحظة الانحطاط الفكري الذي اقترن بتطبيقات سياسات العولمة ، وسحب البساط من تحت قاعدة القيم الفكرية والجوهرية التي رعتها البشرية

• الصحيح هنا استخدام لفظة (الجديد) بدل (الحديث) في عبارة [الفكر الاقتصادي الحديث] وذلك لارتباط ملفوظ (الحديث) بعصر الحداثة الذي انتهى معرفيًا ببدء القرن الحادي والعشرين وبدء عصر ما بعد الحداثة [Postmodernism].

والرائج في الغرب استخدام: [[new economy، [new marketing]، new lebralisim]].

طيلة قرون طويلة، وكانت حصيلة حضارية عامة لأعمال النهضة الأوربية منذ القرن السابع عشر ، لتشهد نهايتها مع بدء العصر الأمريكي في القرن الحادي والعشرين...

بكل هذا الكرنفال البشري الملون من الجنوب والشرق والشمال... حيث تداخلت ظواهر سياسية وعسكرية واقتصادية ، نجحت في تحقيق القطيعة بين الإنسان وأرضه من جهة، والإنسان وذاته من جهة أخرى.

إذا كان السباق المالي بين الشركات جعل الكبار يفترسون الصغار ، والأكثر وحشية يفترسون الأكثر وداعة وورعا... فكيف تكون نتائج النمو السكاني بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب؟...

إذا كانت أصول الشعوب الأوربية اليوم هي هندو -آسيوية ، فهل ثمة أرض خالية تستقبل الهجرات الآسيوية الجديدة؟... وما هي نتائج اصطراع هجرات الشرق مع هجرات الجنوب؟...

يقترح البعض أرض القمر أو المريخ، ولكن المشكلة أن تكاليف النقل ستكون باهظة جدًا ، والمال هو ما ينقص المهاجرين الجدد تحديدًا ، وهو مركز الصراع العالمي المعاصر !.

- تطور أسباب الكوارث

في بدايات التاريخ كانت الظروف الطبيعية والتغيرات المناخية العنيفة وراء انهيار المجتمعات وانقراض الممالك واندفاع الهجرات السكانية في الأرض.

فاعتقد أنصار التطور والعقل العلمي ، أن التكنولوجيا المتطورة كفيلة بترويض عوامل الطبيعة وصيانة الحياة وتطوير أساليب المعيشة والتفكير نحو الأفضل ، حضارة الإنسان الأعلى / السوبرمان.

لكن المفاجأة التي تكشفت عنها العقود الأخيرة ، هي أن تلعب حركة رؤوس

الأموال ومعدلات العجز والإنفاق، دورًا في تقويض الدول والحكومات وتدمير المجتمعات المحلية، كما حصل مع النمور الأسيوية في التسعينيات، ويحدث اليوم (يوليو ٢٠١٥م) في اليونان، سيما عقب فوز الحزب الشيوعي اليوناني في الانتخابات الأخيرة.

واليوم تعتمد ثلاثة أرباع بلدان العالم على القروض والمساعدات الخارجية، ويعاني ثلاثة أرباع سكان الأرض من الفقر والتخلف، وتعاني ٧٠% من النساء من الفقر والتخلف.

من هنا يمكن تقييم حقيقة صورة الراهن المزوقة بأصباغ الديمقراطية وثورة الاتصالات الإلكترونية، وما هي احتمالات المستقبل المتشكلة في رحم الحاضر.

- كلمة أخيرة

سواء كانت المرأة قد استخدمت الأبناء وسيلة منافسة في الصراع مع الرجل، أم هي القبيلة والدين والدولة، استخدمت المرأة والإنجاب لمنافسة الجماعات القبلية والدينية والدول الأخرى، وضمان الكثرة الكمية للانتصار في صراعها أو بقائها، أم هي الرأسمالية تستخدم المرأة لتمويل مادة الحروب وعبودية العمل، فإن قيمة الجماعة تتحدد بقيمة منظورها للإنسان.

الإنسان هو حجر الزاوية في كل بناء اجتماعي، اقتصادي، حضاري أو ديني، وبدون توقير الإنسان كقيمة اجتماعية وروحية فاعلة في حضارة الأرض... فإن الخلاصة العامة لملايين سنوات مسيرة البشر على الأرض، تبدو متواضعة جدًا، وينقصها الإغراء أو الجاذبية.

وملاحظة البؤر الحضارية ونقاط الإشعاع والتجديد والتنوير انطلقت من مراكز نوعية قليلة أو معتدلة الكثافة السكانية، بينما اقترن التخلف والعنف بمناطق الكثافة والانفجار السكاني. هذا ما ينطبق على سومر واضعة الحروف الأولى

والمرتكزات الأساسية للمدينة والمدنية والحضارة ، وينطبق على الإغريق والدور الحضاري لأثينا ، وصولاً للنهضة العلمية والمدنية والحضارية لأوربا القرن الثامن عشر وما تلاها.

فكانت الأقليات السكانية صاحبة الريادة الحضارية وصدارة قياد المجتمع البشري.

واليوم تشكِّل مجتمعات الجنوب والشرق المترهلة –سكانيًا– ، والمتخلفة – حضاريًا واقتصاديًا – عبئًا على صناديق المساعدات الإنسانية والقروض الأجنبية للبلدان الغربية التي تتهددها الشيخوخة القومية والانقراض السكاني.

فيما لا يعن للطرف المقابل التفكير في اعتماد سياسات تنظيم الأسرة والاقتصاد ورفع مستويات إنتاجية الفرد.

obeikan.com